

الباب الرابع

الإسلام رسالة عالمية

أولا - مع المجتمع العربى

ثانيا - عالمية الاسلام

الفصل الأول

- الكفاح في تاريخ الشعب العربي
- أواصر القربى في الشعب العربي
- الأمانى القومية
- واجب الشعب العربي في حاضره
- نحو مجتمع عربى أفضل
- الوحدة ثمرة الفكر المشترك
- تمسكنا بالمبادئ يكفل انتصارنا

الكفاح فى تاريخ الشعب العربى

فرق الاستعمار بين أبناء الشعب العربى ، وجعلهم شعوباً وقبائل ، وجعل رقتهم التى يعيشون فوقها أوطاناً مختلفة ، وجعل بين هذه الأوطان حدوداً وفواصل وأمن فى الفصل بينها حتى كاد يصبح لكل مجموعة من أبناء العروبة هدف وأمان وخطة لتنفيذ هذا الهدف وتلك الأمانى ، يغاير ما لدى المجموعة الأخرى من هدف وأمانى ، وكذلك ما لديها من خطة ووسيلة .

وحاول الاستعمار أن ينسى الشعب تاريخه الماضى حتى إذا ما نسيه استطاع أن يذله ، وسهل عليه أن يقوده إلى ما يريد . والاستعمار لا يريد من هذا الشعب العربى صاحب التاريخ المجيد إلا أن يقدم له ما عنده من ثروة بشرية واقتصادية ، وما له من موقع ممتاز على وجه الأرض قاطبة .

إن لهذه الرقعة التى يعيش عليها الشعب العربى أو ما يسميه الاستعمار - مجموعة الشعوب العربية - لها مكانتها فى تاريخ هذا الشعب وفى تاريخ الحضارة الإنسانية كلها .

فلسكة والمدينة منزلتهما فى الدعوة إلى الاسلام . فإن كانت الدعوة قد انبثقت من الأولى ، فقد شدت الثانية أزره وناصرته . والاسلام هو تلك الدعوة التى حولت نظر الناس إلى أن يكونوا أسياداً على أنفسهم وبينهم وبين بعضهم بعضاً . هو تلك الدعوة التى وجهتهم فى الخضوع والإذعان إلى قوة تسمى بشرية ، إلى قوة الخالق وحده سبحانه وتعالى . وبهذا كانت دعوة تحريرية من شهوة الإنسان على نفسه ، ومن سيطره إنسان على إنسان .

ولدمشق منزلتها فى استقرار نظام الإسلام لدولة تظل برعايتها ألواناً من الناس مختلفي الأصل والثقافة والعقيدة لها منزلتها فى إشهاد التاريخ البشرى على أن الإسلام

والعرب قد كان لها إمكانيات التوجيه السياسى وتطبيق المبادئ العليا فى نظام الحكم ما أتاح لكل فرد أن ينسى خصائصه ويتمتع بمجهوده الفردى فى صلات أخوية إنسانية مع غيره سواء فى العقيدة أو فى المزرع والمشراب .

ولبغداد منزلتها فى حفظ تراث الحضارة الإنسانية العلمية والفكرية كذلك وفى تسميتها بما كان له أثره الواضح فى تلك الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة . فأوروبا حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى كانت لا تعرف عن ذلك التراث شيئاً . وبفضل بغداد على هذا التراث عرف الغرب حضارة العرب وحضارة الإنسانية القديمة ولم يخط هذا الغرب خطوة فى سبيل التقدم الحضارى والفكرى إلا بعد أن فتح ذهنه بذلك الفكر العربى ، ولم يتم الإصلاح الدينى فى أوروبا إلا بعد الوقوف على تعاليم الإسلام .

وللقاهرة منزلتها فى دفع أول غزو غربى استعمارى ، هو الغزو الصليبي لرقعة ما يسمى بالشرق الأدنى ، لأن ، وهى رقعة الشعب العربى . وإصلاح الدين الأيوبي مكانته التاريخية فى دفع هذا الغزو الذى تكرر غير مرة ، وبذلك أُنقذ الإنسانية من جهالة القرون الوسطى التى سادت أوروبا ، وأُنقذ الإنسانية مرة أخرى من سيطرة الوحشية البربرية الغازية على مقدسات الإنسانية فى هذه المنطقة .

ولفاسطين منزلتها الروحية فى نفوس المؤمنين جميعاً من البشر ، لها مكانتها فى تاريخ الإنسانية الفاضلة بما فيها من ذكريات الرسالة الإلهية .

وهكذا لكل بقعة فى أرض الشعب العربى أثره الفاضل ، أثره القوى على الإنسانية فى هدايتها إلى الحق ، وفى إرشادها إلى قيمة الفكر ، وفى تعريفها بتاريخ هذه الإنسانية نفسه .

هذا هو تاريخ الشعب العربى ، هو تاريخ شعب واحد ، يحمل مشعلاً واحداً ، يحمل مشعل الهداية والفكر الإنسانى السليم ، وله رسالة واحدة ، هى رسالة الأخوة بين بعضهم بعضاً ، ورسالة المودة بينهم وبين غيرهم . إذ طالما كان الشعب فى تاريخه

للماضى حاملا لمشعل الهداية الإلهية وللمكر الانساني السليم — فلم تكن له رسالة إلا رسالة الاعتصام بالحق والدفاع عنه . والاعتصام والدفاع عنه لا يتم إلا حيث كانت الأخوة الصافية والوودة الإنسانية قد تمكنت من نفوس المعتصمين المدافعين . إن تاريخ الشعب العربي قد حدد شخصية هذا الشعب فأسند إليه رسالة هي رسالة النور والهداية ، وقد مجد دوره في الكفاح من أجل هذه الرسالة . والغزوات في جزيرة العرب ، والمعارك بعد هذه الغزوات في أشهر مدن الشعب العربي من بغداد .. إلى طنجة : ترشد إلى قيمة هذا الكفاح وبطولة الكافحين .

إن رسالة النور والهداية هي رسالة الحرية الإنسانية ، هي رسالة تحرير الإنسان من الرق والسيطرة الفردية أو الجماعية . كان للعرب رسالة ، وكان كفاح . ولم تكن لهم رسالة ولم يستطيعوا أن يكونوا مكافحين إلا يوم أن اجتمعت كلمهم بعد أن فرقهم الشهور : وتلك آية من آيات الله يتحدث بها إليهم : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » (١) .

هذا هو تاريخ القومية العربية ، وماضى العروبة هو دليلها في حاضرها . ولذا لا تتخلى عن رسالتها ، ولا عن كفاحها . ونعتقد كما اعتقد الأسلاف من قبل أن هذه الرسالة ان تؤدى إلا بالتماسك ، وأنها لا تصمد في الكفاح إلا بالوقوف في صف واحد ليس فيه تفرقة . ولم تكون الثغرة ؟

١ — بلغتم نزل القرآن الكريم .

٢ — وفي سبيل الدعوة إلى الإسلام تعلمتم أعباءها وانتصرتم بصبركم في الجهاد .

٣ — فملاقاتكم هي علاقات : اللغة والدين ، والكفاح المشترك في التاريخ من أجل الوجود ، والاشتراك في الأمانى القومية ، والرحم والجوار ..

(١) آل عمران : ١٠٣ .

أواصر القربى في الشعب العربي

نتناول في هذا الحديث أواصر القربى في الشعب العربي ، وهي أواصر متعددة ، قوية . هي أواصر اللغة ، والدين ، والتاريخ المشترك في الكفاح ، وصلة الرحم والجلوار . وقد أراد الله لهذا الشعب العربي أن تكون علاقته بين بعضه بعضاً متنوعة حتى لا تنفهم عراها تحت ضغط الأحداث وتيار الفتن والدسائس .

رابطة اللغة :

١ - بينكم رابطة اللغة ، وهي لغة القرآن الكريم الذي نزل به الروح الأمين على خاتم الأنبياء ﷺ : « نَزَّلَ مِنَ الرِّحْمَنِ الرِّحِيمَ . كِتَابٌ فَصَّلَ آيَاتِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ^(١) » .. « فَإِنَّمَا يَسْمُرُاهُ بِلِسَانِكَ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدَأَ ^(٢) » .. فهي اغتكم في الخطاب والفهم ، ولغتك في دينكم وعقيدتكم ، ولغتك كتبها تاريخكم . وهو تاريخ أمة واحدة وشعب واحد ، له خصائص متفقة في الحياة والأمانى .

ورابطة اللغة رابطة طبيعية غير مصطنعة . وهي مرآتكم ترون فيها ماضيكم وحاضركم ، وتسجلون بها مستقبلكم لأجيالكم القادمة . هي أكثر من ألقاظ وعبارات . هي التعبير عن حياتكم وما قمتم أو تقومون به فيها إزاء أحداثكم الخاصة أو تلك الأحداث التي تواجهونها .

حاول المستعمر إضفاف هذه الرابطة وإخراجها عن أن تكون وسيلة لجمعكم وأداة لتكتلكم واتحادكم . فدعا إلى المهجاتكم الخاصة ، ومنها العامة ، لتكون لغات مستقلة تحل محل اللغة الفصحى التي هي لغة القرآن ، والتي هي الرابط العام بينكم . دعا إلى أن يدون بلهجاتكم وعاميتكم تاريخ كل فريق منكم ، وبذلك تصبحون

(١) فصلت : ٢ ، ٣ . (٢) مريم : ٩٧ .

شعوباً متعددة لأشعباً واحداً ، وتبعدون قليلاً أو كثيراً عن إله فراآكم وعن فهم كتاب الله المنزل الذي هو مصدر هدايتكم ونعمة الله عليكم .

ورابطة الدين :

٢ — بينكم رابطة الدين ، وهو الإسلام ، دين الفطرة الإنسانية : « فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ . ذَلِكَ الدِّينُ الْقَیْمُ ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ ^(١) » .

بهذا الدين جمع الله شملكم وأخى بينكم ، بعد أن وجهكم إلى عبادة الله وحده : « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ^(٢) » .. ولكن مع ذلك لا يدع الله عباده دون أن يختبرهم في إيمانهم ليعلم الصادقين منهم والكاذبين في إيمانهم والعابثين فيه : « أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَالْعَالَمِينَ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ^(٣) » .

واختبار الله لعباده ليس في وقت دون وقت ، وليس في صورة واحدة غير متنوعة . وما ابتلى الله به المسامين في هذه المنطقة حديث المستعمر عن مذاهبهم وأنها مذاهب لا تلتقي ، واتخذ من تعداد مذاهب الشيعة والسنة ، ومذاهب الفقهاء والمتصوفة والوهابية .. سبباً للفرقة والإيقاع بينهم ، ليوهن من وحدتهم ، وليحول دون اتحادهم في الانجاء والغاية ، ولكن الله يقول : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ^(٤) » .. ويقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ^(٥) » .

(١) الروم : ٣٠ . (٢) الأنبياء : ٩٢ .
(٣) العنكبوت : ٢ ، ٣ . (٤) آل عمران : ١٠٥ .
(٥) الأحزاب : ٦ .

فالإسلام قد نهى عن الفرقة ، والاختلاف الذى يهدد الوحدة ، ويجعل المسلمين طوائف تقاتل بعضها بعضاً . وأوضح من جانب آخر طريق صون وحدتكم إذا اختلفتم فى فهم ما أنزل الله ، وهو الرجوع إلى كتاب الله ، وإلى ما يؤثر عن رسول الله ﷺ من قول صحيح وعمل ثابت .

فرابطة الدين بينكم ، وهى مرآة حياتكم ، زادت فى تعاونكم وفى لقاءكم وفى دفع محاولات أعدائكم للنيل منكم .

ورابطة الرحم والجوار:

٣ — بينكم صلة الرحم والجوار وهى صلة تدعو إلى رعاية المصلحة المشتركة وإلى التعاون فى دفع الضرر والأذى . يقول الله سبحانه وتعالى : « النبی أُولٰٓئِیْ بِالْمُؤْمِنِیْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجِهِ أَمَنَاتِهِمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلٰی بِبَعْضٍ فِی كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِیْنَ وَالْمُهَاجِرِیْنَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِیَائِكُمْ مَعْرَفاً ، كَانْ ذَٰلِكَ فِی الْكِتَابِ مَسْطُورًا ^(١) » . . . ويقول « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّهُ دِیْنُ الْحَقِّ ، وَبِذِی الْقُرْبٰی وَالْيَتَامٰی ، وَالسَّكٰنِ وَالْجَارِ ذِی الْقُرْبٰی وَالْجَارِ الْجَنْبِ ، وَالصَّاحِبِ الْجَنْبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنْ اللَّهُ لَا یُحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَلًا مَغْخُورًا ^(٢) » .

هذه الصلة بدورها يحاول المستعمر أن یزقها . يحاول أن یجعل من الحکام فى منطقة الشعب العربى نفوذاً ، كما یحاول أن یجعل بین المسيحية والإسلام هنا حواجز المداوة والبغضاء .

علینا أن نعود بهذه الروابط إلى طبيعتها . علینا أن ندرك أن تاریخ العروبة هو تاریخ الشعب العربى بأسره لا تاریخ ذلك النفر من الساسة الذين تعاونوا مع الاستعمار على إذلال هذا الشعب فى كرامته وفى حیاته .

(١) الأحزاب : ٦ . (٢) النساء : ٣٦ .

أما أعوان الاستعمار اليوم فقد ابتلى الله المسلمين بأمثالهم عند قيام الإسلام .
ولكن المسلمين لما صبروا في كفاحهم كان النصر حليفهم . يقول الله جل شأنه :
«لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ، وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ ، وَظَهَرَ أَمْرُ
اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ^(١)» .

وقد وضع الإسلام مبدأ لتقوية التآمر على المسلمين وإثارة فتنة الفرقة بينهم
عن طريق نفر من بينهم ، وعبر عن ذلك المبدأ بقول القرآن الكريم : « يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ، لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدَوَّامًا عَنْهُمْ قَدْ
بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخَفَى صُدُورُهُمْ ، أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ^(٢)» .

إن ما صلح به أول الأمر يصلح به آخره : إيمان وكفاح في تماسك ، وصبر
فنصر : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ^(٣)» .

(٢) آل عمران : ١١٨ .

(١) التوبة : ٤٨ .

(٣) الحج : ٤٠ .

الأماني القومية

حديثنا اليوم يتناول الأماني القومية ، بين مجموعة الشعوب العربية التي لها تاريخ واضح في الحضارة والمعرفة ، وفي القيادة والسيادة ، هذه الشعوب التي تأمر عليها الاستعمار الغربي وقسمها إلى وحدات ومناطق وأضعفها من بعد قوة ، وأذلها من بعد سيادة ، واستغل إمكانياتها البشرية ، وثروتها الأرضية . ولم يزل يضعفها ، ولم يزل يفرق بينها . ولم يزل يستغلها .

إن لهذه الشعوب العربية أماني مشتركة وأهدافاً في حياتها موحدة : إنها تريد أن تعيش سيدة نفسها ، لا مستذلة ولا مستضعفة . إنها تريد أن تحفظ بشخصيتها ، لا تناع في شخصية غيرها أياً كان هذا الغير . إنها تريد أن تستقل عن نفوذ الأجنبي عنها والدخيل عليها ، لا أن يستقل بعضها عن بعض في الاتجاه ، ولا أن يصير استقلالها حواجز لبعض المناطق عن بعض . إنها تريد أن تعود إلى مكانها في التاريخ يوم كانت تحمل لواء الحضارة الإنسانية ، وتدافع عن المثل الرفيعة في تثبت وإصرار لا تضعف في الدفاع عنها ، ولا تدعو إلى المساومة عليها ، ولا تحزن بشيء من خيبة الأمل في بعض مراحل الكفاح في سبيلها : « فَلَاتَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَ أَعْمَالَكُمْ ^(١) » .. « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ^(٢) » .

يريدون أيها المسلمون هذا في هذه الديار أن تكونوا أحراراً في حياتكم كما أمرتم من دينكم أن تبقوا أحراراً من تسلط غيركم عليكم ، يقول الله جل شأنه : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْعُرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ^(٣) » .

(٢) آل عمران : ١٣٩ .

(١) القتال : ٢٥ .

(٣) آل عمران : ١١٠ .

ويعتقد كونه خير أمة لها رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنكم لا تصيرون أتباعاً لمن دونكم ولا مغلوبين على أمركم في حياتكم، لأنكم لا تكونوا عندئذ خير أمة أو لا تملكون مقومات الأمة صاحبة السيادة على نفسها، فضلاً عن أن تكونوا أصحاب رسالة في التوجيه. لأن من لا يسود نفسه لا يوجه غيره.

عرف عدوكم هذا في دينكم، وعرف قوة صلحكم بهذا الدين لا ترحمكم عنه ثقافته التي يدعو لها، ولا يضعفه في نفوسكم حربه التي يقوم بها ضد اقتصادكم. عرف هذا وذلك فآثر أن يلجأ إلى الدمائس بينكم. كما اعتمد عليها من قبل في استعمار دياركم طول هذه السنين، وكما اعتمد عليها في استغلال موارد بلادكم لصالح نفسه وإضعاف مقاومته له: يثير الفرقة القبلية والشعبية فيكم بعد أن كان فضل الإسلام عليكم هو أن جمعكم على هدف واحد وعلى أساس واحد: «وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»^(١).. ولم يؤلف سبحانه بينكم على أساس من القوة المادية تضعف بعد حين، ولا على أساس من تبادل المنافع ينتهي عرضها بانتهاء وقتها أو قيمها، ولا على أساس من علاقات القرابة في الأسرة أو القبيلة أو الجنس البشري تنتهي بتفرع الأسرة إلى أسر، وتكثر القبيلة إلى فصائل، واتساع نطاق الجنس إلى جماعات تتباعد فيما بينها حتى تذكر كل جماعة صلتها بالأخرى. ولكن ألف بينكم في سبيل الله، في سبيل الحق، في سبيل المثل الرفيعة وخير الإنسانية حتى إذا أشربت قلوبكم حب الإيمان بالله وبالحق صرتم قوة في كثرة بعد ضعف في قلة، وأصحاب سيادة وعزة بعد خوف واستضعاف لغيركم: «وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُتَسَاوِفُونَ فِي الْأَرْضِ تُخَافُونَ أَنْ يُخَطِّفَكُمُ الدَّسُ فَأَوْآكُم بِأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»^(٢).

وكما يحاول عدوكم، وهو الاستعمار، أن يفرق بينكم بإثارة روح القبيلة

والشعوبية فيكم ، يعتمد على نفر من ضعفاء النفوس منكم ليعوقكم بوسيلة أو بأخرى عن أن تجيبوا داعي المصاحبة وتلبوا نداء الحق جل شأنه الذى وعدكم بالنصر إن نصرتم رسالته ، وهى رسالة الخير لكم وللإنسانية فيقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ^(١) » .. أو يتراخى عن العمل معكم والاستجابة لروحكم العامة . وقد مرت أمتكم بهذين الصنفين من الناس ، للموقنين والمترابين وابتليت بهما كما يتلون بهم اليوم وغداً . والقرآن الكريم يقص علينا أمر هذين الصنفين ، يقول سبحانه وتعالى : « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُوَقِّينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشْحَذَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشْحَذَ عَلَى الْخَيْرِ ، أَوَلَيْسَ لِمَنْ يُوْرِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ^(٢) » .

ويقول الله أيضاً : « وَإِنْ مِنْكُمْ لِمَنْ كَيْبُطُنٌّ ، فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالِ : قَدْ أَنُصِمَ اللَّهُ عَلَيَّ ، إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَمَّا أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لِيَقُولُوا : كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ : يَا لَيْفَئِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ^(٣) » . ولكن أمتكم فيما مضى قضت على التخاذل والتخذيل بشيء واحد : الإيمان بالحق . ويقول الله فى خاتمة أمرها :

« وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ^(٤) » .. كما يقول فى عاقبة أولئك المتخافين فيها عن أن يكونوا فى صف الكافرين . إن دعاء الحق إلى الكفاح : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتُ سُورَةٍ ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ

(١) القتال : ٧ . (٢) الاحزاب : ١٨ ، ١٩ .

(٣) النساء : ٧٢ ، ٧٣ . (٤) الشورى : ٢٩ .

مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُم . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ . فَسَمِعَ عَصِيْمٌ إِذْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ^(١) .

أيها المسلمون في مناطق هذا الشعب العربي ، كونوا كما كان أسلافكم ، آمنوا بما آمنوا به من حق ، وكافحوا كما كافحوا في سبيله . واعلموا أنكم منبلون في لقاءكم بالثيبيين المتقاعسين ، وبشيء من الخوف ونقص الأموال ، ولكن العقبة لكم إن صبرتم كما كانت العقبة لهم عند صبرهم .

إن وعيكم القوى الآن هو قوتكم ، وهو سلاحكم ضد عدوكم . إيمانكم بأنفسكم وبحقكم في الحياة وترباطكم هو الأمر الذي يقف دون استغلالكم واستدلالكم . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَأْقُونُ إِلَيْهِم بِالْوُدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ^(٢) » .

(١) القتال : ٢٠ - ٢٣ . (٢) أول المتحنة .

واجب الشعب العربي في حاضره

أيها المسلمون في هذه الديار العربية :

لأول مرة في تاريخ صراعكم مع الاستعمار في وطنكم تثبتون في وجه عدوانه بل ويرجع جانبكم في مقاومتته . وقد كنتم معه من قبل مغلوبين على أمركم إن حاولتم أن تكافحوا سلطانه السياسي ، أو تقفوا في وجه نشاطه الاقتصادي أو تبتمدوا عن توجيهه الثقافي .

تعلنون اليوم باسم القومية العربية تحديكم لأساليبه البغيضة ، تعلنون إيمانكم بأنفسكم وبحياتكم ومحكمكم في السيادة على دياركم في مواجهته ومواجهة أعوانه ، وقد كنتم لا تستطيعون إلا أن تتحدثوا عن رغبات وأمانى ، وفي لحظة دون لحظات وفي صوت خافت لا تسمعه إلا قلوبكم الحزينة التي لا تملك يوماً إلا أن ترغب وتمنى فقط . ولكنها الآن قد عمرت بالإيمان ، وتحرك إيمانها إلى يقظة وعمل ، إلى استمرار في اليقظة وصبر في العمل .

نعم يقظتكم مستمرة وعملكم في صبر وجلد . ولكن عدوكم لم يهت صوتته بعد ، ولم ييأس لان من مقابلتكم ، ومقاومة يقظتكم ، وإضعاف صبركم في العمل ضده . إن بومكم هذا هو نقطة التحول في تاريخكم الحديث : من ذل واستعباد إلى تحرر وسيادة .

١ — إن ثباتكم في لقائه هو طريق نجاحكم ، هو الوسيلة إلى ظفركم بما تكافحون من أجله سنوات طويلة . يقول الله جل شأنه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَقِيَمُ قِتَّةً فَاثْبُتُوا ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(١) » . أى إذا اشتبكتكم

مع أعدائكم في لقاء فائتوا في لقائكم في مواطن الكفاح . واذكروا الله كثيراً
أثناء كفاحكم معه مستمدين منه سبحانه وتعالى العون ، مستظهريين بذكره ،
مترقبين لنصره لعلكم تفوزون وتظفرون بمرادكم من النصر في الدنيا والثبوة
من الله في الآخرة .

الثبات ، مقرونًا بذكر الله لا تتخلف عنه نتائجه من النصر والسيادة : الثبات
في المعركة ، الثبات في احتمال الألم ، الثبات في ضبط النفس ، الثبات في ردّ النوازع
الثبات في ردّ الإغراء ، الثبات في هذا كله لا يكون إلا بمن حرص على مصلحة
جماعته وأمنه ، لا يكون إلا بمن يكافح من أجل مبدأ ، وفي سبيل مصلحة عليا ،
وعلى ذكر من هذه المصلحة العليا التي تنهى إلى الله جل شأنه .

٢ — الله سبحانه إذ يأمر المؤمنين بالثبات في كفاح عدوهم على هذا النحو
ينهاهم كذلك عن إتيان بعضهم لعمل لا تكون أضراره وفقاً على من يباشر هذا
العمل بل تعم الأمة كلها ، مثل التراخي في الكفاح ، وإفتراق الكلمة ، والتأخر على
مستقبل الأمة ، وموالاته الأعداء ، ونحو ذلك مما أطلق عليه سبحانه : « فتنة » ،
وسمى القائم به ظالمين ، مع أنهم من بين المؤمنين : يقول جلّ شأنه : « واتقوا
فتنة الذين ظلموا فمككم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ^(١) » .
فهنا تبارك اسمه كيف ضاعف النهي عما يصيب الأمة في مجموعها من ضرر ، وكيف
حذر في صورة تؤكد غضب الله على من يقوم بذلك من أبناء الأمة . فسبحانه
لم يقف عند حد التعبير عن هذا العمل بالفتنة ، ولا عند حد وصف القائم به بالظلم
بل أعقب هذا وذاك بقوله : — ولا راد لما يقول — : « واعلموا أن الله شديد
العقاب » .

٣ — ثم جمع ما أمر به من الثبات هناك ، وما نهى عنه هنا من القيام بما

(١) الانفال : ٢٥ .

يعود على الأمة من ضرر — مرة أخرى في قوله : « وأطيعوا الله واطيعوا رسوله ولا تذرعُوا فتشَلُوا وتذهب رِيحُكُمْ ، واصبروا إن الله مَعَ الصَّابِرِينَ ^(١) » .
فإن من لوازم طاعة الله وما أوحى به لرسوله ﷺ أن لا يكون هناك استسلام في مقاومة عدو ، كما أن من نتائج الوحدة وعدم الفرقة الصلابة في المقاومة ومن نتائج الصبر الظفر بالمطلوب . وإن الله مع الصابرين في توصيلهم إلى أهدافهم ومعاونتهم على ماصبروا في سبيله .

أيها المسلمون في هذه الديار العربية ..

يومكم اليوم هو اليوم الفاصل في مستقبلكم ، وسلاحكم هو ثباتكم وعدم فرقتكم ، وذكر الله جل شأنه في كل خطوة من خطوات كفاحكم بتذكركم .
رسائله وهي رسالة الحزم والتوكل ..

نحو مجتمع عربي أفضل

يقول الله جل شأنه :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »^(١) . فلا تتغير حالة الإنسان من ضعف إلى قوة ، ولا من قوة إلى ضعف إلا إذا تغيرت نفسه تغيراً يمد له الحال التي هو عليها . فمن أحب العزة ، ومال إلى الرفعة ، وسلك الطريق إلى أن يكون عزيزاً رفيعاً فإنه سيكون له حال العزبز الرفيع . ومن رضى رضاء نفسياً بالمهانة وخضع إلى الاستسلام والتبعية ، فإنه سيكون له حال المهان المستسلم في غير حرج .

تكوين النفوس تكويننا صالحاً :

والجماعة التي تريد أن تكون ذات سيادة على نفسها ، وكرامة على غيرها ، وسمت إلى السيادة والكرامة ، فإنها تكون يوماً ما سيادة نفسها وكرامة على غيرها . وبالعكس : الجماعة التي تطمئن نفسياً إلى الدنية ، وإلى النبوذة لغيرها ، فسنبقى أذات دنية وتابعة .

ونصرة الله في الإيمان به والعمل برسائله . والإيمان بالله لا يكون في حال حزن ، بل لا يكون الحديث عن إيمان إنسان أو جماعة بالله ، إلا إذا بدا هذا الإيمان وقوة الإنسان أو الجماعة على حال لا يقل عنه في وقت الضعف لما . والإيمان بالله إنما يندو في العمل برسائله . ومظهر العمل بهذه الرسالة توجه إلى الله في خشوع ، واستقامة في السلوك ، كما هو المرجو من الصلاة . ورعاية المحتاج ومساونة له ، كما هو أثر الزكاة . ونصح للآخرين بالمعروف ، ونهي لهم عن الفحشاء

المنكر ، لا باقول فحسب ، وإنما قبل ذلك بالعمل على اتباع المعروف وتجنب المنكر .

إن طريق الإيمان بالله والعمل برسالته هو طريق تعريف الإنسان نفسه بين أفراد جماعته ، ورسم لموقفه من جماعته . إنه طريق الهدى من الأمانية ، والقيام بعمل الخير العام . ومن الخير العام أن يحرص على ما يدعو إليه تماسك الجماعة ويزيد في قوته ووضوحها .

فلا ينبغي الله حال إنسان أو جماعة إلى حال آخر إلا بعد أن تتغير نفس الإنسان وتتغير نفوس هذه الجماعة أولاً وتستمد استمداداً نفسياً يلائم الحال الآخر ، ويدعو إليه .

والطريق الذى رسمه الإسلام لجماعة تريد أن تكون ذات سيادة وعزة ومنعة ، وأن يكون أفرادها أقوياء أعزاء ، أقوياء النفوس ، أقوياء الشعور بالكرامة ، ليس هو الطريق الذى يرسمه الغرب المستعمر فى السلوك فى الحياة ، ولا الطريق الذى يحدده الشرق فى فهمه للوجود والإنسانية . إنه الطريق الذى يضمن نصر الله لمن سلكه واتبعه ، إنه الطريق الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله : « ولينصرنَّ اللهُ منْ ينصرونَّ » ، إنَّ اللهَ لقوىٌ عزيزٌ . الذين إن مكنتهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور ^(١) .

ونصر الله هو العمل برسالته . والعمل برسالة الله أن يكون الإنسان فى صلته بالله حال سيادته وقوته على نحو صلته به حال ضعفه : توجه إلى الله فى خشوع ، واستقامة فى السلوك ، ورعاية للحجاج ، ونصح للآخرين بالمعروف ، بعد أن يكون

(١) الحج : ٤٠ ، ٤١ .

هو قد ابتعد عن الفحشاء والمنكر . إنه طريق الهدى من الأمانة والقيام بعمل الخير في جماعته . ومن الخير في جماعته أن يقوم بما يدعو إليه تماسك الجماعة وصيانتها من الضعف أى ضعف .

الحثية من الله اول مراحل التكوين :

إن الإسلام يريد إذن للجماعة أن تسود ، وتبقى محتفظة بسيادتها ، وأن يكون أفرادها أصحاب بناء ، وأصحاب عمل إيجابى خير أنفسهم كأفراد وخير جماعتهم التى ينتسبون إليها . وأساس هذا العمل الإيجابى أن يخشى الإنسان الله فيما يعمل ، وأن يعاون غيره فيما يحتاج فيه إلى معاونة .

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه » : فهو لا ينصح بالعمل — إذ طلب العمل أمر مفروغ منه — وإنما ينصح بإتقانه : وإتقان العمل فى أن يخشى الله ويرقبه فيما يعمل ، ولو كان العمل صدقة ومنحة .

فإذا افترضتم صعاب فى طريق سيادتكم ، بعد أن سلكتم إلى هذه السيادة طريقها المرسوم فلا تهين عزائمكم ، ولا تطرق اليأس إلى نفوسكم . لأن الصعاب فى طريق الإنسان والجماعة قانون فى الحياة لا يتخلف ، وأن ما يصيبكم قد أصاب أسلافكم . وتقوا أن نصر الله قريب : بالصبر فى مقاومة هذه الصعاب إن استعنتم بقول الله جل شأنه :

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسِكُ قَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرَحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَادَوْهَا بَيْنَ النَّاسِ (١) » .

نم لا تكون النتائج بدون مقدمات ، ولا تكون الحسنة منها إلا بعد الابتلاء بها والغلب عليها ، فيقول الله تعالى :

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ،
مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَزَالُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى
نَعْرِضُ اللَّهَ ؟ أَلَا إِنَّهُ نَعْرِضُ اللَّهَ قَرِيبٌ ^(١) » .

فإن أردتم مجتمعاً إنسانياً أفضل في دياركم ووطنكم ذا : طريقه لا هو شرقي ،
ولا غربي .. هو إسلامي رسمه الله في رسالة السماء إلى البشر جميعاً . وإذا صادقتم
العقبات فلا تبتسك من رحمة الله أو نصره ، لأن وجود العتبات في طريقكم ليس
خاصاً بكم ، بل هو من طبيعة الحياة وسنة الكفاح فيها .

(١) البقرة : ٢١٤ .

الوحدة ثمرة الفكر المشترك

الفكر اقوى رابطة بين الانسان والانسان :

الإنسان مع الإنسان ، كأي شيء مع شيء آخر ، أمران مستقلان ، قد يكونان متنافرين ، إذا اقترب في المكان أحدهما من الآخر ، أو كان أحدهما في جوار الآخر . وقد يكونان متآخيين إذا التقيا ، وقد تبقى الأخوة بينهما أيضاً بعد أن يفترقا .

تكون بين الإنسان والإنسان نفرة ، لا لأن أحدهما يفترق عن الآخر في اللون ، أو في السن ، أو في الطول والعرض ، وما شابه ذلك من صفات الجسم . ولكن تكون هناك النفرة بين إنسان وإنسان إذا لم يلتقيا في التفكير وبشركا في الفكرة ، ويحتمعا على الهدف . إذ الإنسان إنسان بفكره ، لا بجسمه .

ويجتمع إنسان مع إنسان ، لا بالاتفاق في تاريخ الميلاد وعوارض البدن ، بل بالاتفاق في خطوط التفكير العامة ، وفي النظرة الإجمالية للحياة .

وشأن الجماعة مع الجماعة ، لا يختلف في أسباب النفرة أو الالتقاء عن شأن الإنسان مع الانسان الآخر ، في حال تجانسهما أو تنافرها : تلتقي جماعة بجماعة وتآخي معها ، وقد تزول الفوارق بينهما فيكون الأمر أمراً اتحاداً أو وحدة بينهما - إذا اشتركت إحداها مع الأخرى في فهم الحياة ، وفي تحديد الهدف منها ، وفي الطريق الذي يرسم لبلوغ هذا الهدف ومحصيله .

القرآن اقوى دعائم الفكر :

والقرآن الكريم يذكر « المؤمنين » على أنهم أمة واحدة لأنهم ينتسبون إلى قبيلة واحدة ، ولا لأن ألوانهم وأجسامهم متشابهة ومتقاربة ، ولكن لأنهم يشتركون في تفكير واحد ، يشتركون في نظرة واحدة إلى الحياة ، وفي مقياس واحد يقيمون به أمورهم ، وفي هدف واحد ينفون جميعاً الوصول إليه ، وكأنهم في

سعيهم إلى هذا الهدف يسعون إليه وهم في صف واحد ، وفي خطوات متساوية ليس فيهم متقدم ولا متأخر ، ولا جانح إلى اليمين وآخر إلى اليسار . يقول الله تعالى في أول سورة البقرة : « أَلَمْ . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغييب ويقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ^(١) » .. فجلهم جماعة ، وخطابهم بخطاب الجمع ، لأسهم اجتمعوا على الإيمان بقدر مشترك ، وربطوا تفكيرهم بتنفيذ هذا الإيمان .

وإذن عندما تقرب الفكرة من الفكرة يكون الانقاء بين الناس أفراداً أو جماعات . وعندما يصير الاشتراك في الرأي ، والتقدير ، والهدف والأمل إلى وحدة فيها ، تكون الأخوة بين الإنسان والإنسان على أتمها ، وتكون المجموعة من الناس جماعة واحدة ، وأمة واحدة ، وشعباً واحداً . وإذن أشد الروابط وأقواها الاشتراك في التفكير ، والاشتراك في الأنجاه في الحياة .

وإذن طالما كان الاشتراك في التفكير والأمانى عاملاً في قيام الجماعة والتمسك بين أفرادها — يميل عدو الجماعة المتحدة المتآخية إلى تشتيت التفكير فيها وتوزيع اتجاهها إلى مناحى متعددة ، فيثير العصبية الشعوبية مرة إن كان في الجماعة تمدد في القبيلة أو الجنس ، ويشير الاقتراق في اللهجة مرة أخرى إن وجد هناك اختلافاً ملحوظاً فيها ، أو يعمد إلى الضغط على اقتصادياتها أو إلى إيذاء أسماع أفرادها بنابى اللفظ والقول المختلف ، إلى غير ذلك من الأسباب التي من شأنها أن تجعل الأفراد يميلون بالتفكير إلى شأنهم الخاص بدل الحرص على بقاء تفكيرهم في الدائرة المشتركة وبذلك تضعف الجماعة أو تتلاشى .

وقد تحدث القرآن هنا في قوله تعالى : « يُتَّبَلُّونَ فِي أُمُورِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَلَتَسَعْنَ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، مِنَ الَّذِينَ اشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا ، وَإِنْ

تصبر أو تتقوا فإن ذلك من عزم الأمور^(١) . فذكر أن الجماعة التي قامت على الاشتراك في التفكير، وتأخى أفرادها على وحدة الفهم للحياة الإنسانية لابد أن تبلى من عدوها بعوامل الفقرة العديدة ، ولكن نجاتها من محن هذا الابتلاء إنما تتحقق في صبرها ، وفي اتقانها الخضوع لما يفرق بينها ويشتت وحدتها . وما يفرق بينها ويشتت الوحدة فيها هو المودة إلى الفقرة في الرأي والابتعاد عن الالتقاء في التفكير .

القرآن حدد الاتجاه ووحدة الأمة :

ما يذكره القرآن هنا في أساس وحدة الجماعة من الاشتراك في الاتجاه ، والاشتراك في النظرة إلى الحياة ، وما يذكره أيضاً من أمر ابتلاء الجماعة من عدوها بإفراقة شتى عوامل التفرقة بينها ، ثم ما يذكره من علاج حاسم للخروج من أزمة هذا الابتلاء وتقويت الأمر على هذا المدو بالصبر وعدم الإذعان لما يأتي به من مظاهر الضغط — ما يذكره القرآن هنا هو السنة الطبيعية في قيام الجماعة أي جماعة وفي محافظتها على وحدتها وتماسكها .

إن القرآن إذ يوصي هنا أصحاب الجماعة الواحدة ، التي قامت على الاشتراك في مثل الحياة وأهدافها ، من الصبر والتحمل ، عندما تتمحن بالأزمات من عدوها . يحىء في آية أخرى ويبين أن هذا الصبر وتحمل الأزمات في سبيل الإبقاء على الوحدة في الجماعة هو هدف رفيع يجب أن يكافح الإنسان في سبيله دائماً ، ولا يوازن بينه وبين ما يبتغيه العدو من تفرقة وتشتيت . فسبيل الوحدة هو سبيل الله ، وسبيل التفرقة والإيذاء دائماً هو سبيل الشيطان . وما لله أبقي وأقوى ، وما للشيطان نهايته الضعف والزوال :

« الَّذِينَ آمَنُوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، قاتلوا أو لاء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً^(٢) » .

تمسكنا بالمبادئ يكفل انتصارنا

يقول الله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ^(١) » :

هنا يتحدث جل شأنه عن الذين تمسكوا بالمبادئ ، وعن مظاهر احتمالهم في سبيل تمسكهم بها ، ثم أخيراً عن عاقبة أمرهم وهم لا يرضون عنها بديلاً . فيذكر المؤمنين — وهم أولئك الذين صدقوا بالله وبرسالة رسوله ﷺ . وتصديقهم بالله وبرسالة الرسول تصديق بالمبادئ العاليا . وهي مبادئ تجعل الإنسان متحرراً من الرق والعبودية لبشر أو لما هو أقل من بشر ، وتجعله مطمئناً للسلام في نفسه والسلام بينه وبين أخيه في مجتمعه ، وتجعله - وهو مطمئن للسلام — ذا قوة وذا استعداد لدفع الظلم والعدوان أينما كان مصدره . كما يذكر الله جل شأنه أن آية إيمانهم بهذه المبادئ هي احتمالهم في سبيلها ، ذلك الاحتمال الذي تجلّى إذ ذاك في تركهم أوطانهم وهم ضعفاء ليعودوا إليها ثانية وهم أقوياء ، وفي جهادهم بأموالهم وأنفسهم ، لا يدخرون شيئاً مما يملكون من مال أو طاقة بشرية في سبيل حرصهم على البقاء في ظل هذه المبادئ . ونصرتها والدفاع عنها .

وبجانب ما ذكره القرآن الكريم هنا من الإيمان بالمبادئ . ومن احتمال الشق في سبيلها يذكر أخيراً أن نهاية الأمر بالنسبة لهؤلاء المؤمنين — مهما أودوا ومهما وقع عليهم من ظلم وعدوان — أنهم فائزون ، لا برضاء الله عليهم فحسب ولا بجزائهم الجزاء الأوفى في الآخرة فقط ، وإنما أيضاً فائزون في دنياهم ، فائزون بإنسانيتهم ، فائزون بسيادتهم على أنفسهم وعلى أراضيهم ، فائزون بتحقيق ما اعتقدوا وآمنوا به في حياتهم العملية .

قد كان ذلك شأن المؤمنين بالمبداى ، شأنهم فى إيمانهم وشأنهم فى احتمال المشاق فى سبيل هذا الإيمان ، وشأنهم فى عاقبة أمرهم من النصر والفوز . وتلك سنة الحياة لا تتغير ولا تتبدل ، ولا تقع فى عصر دون عصر . إذ من شأن الإيمان أن يمنح القوة لمن يؤمن ، فلا يصادف عقبة فى طريقه إلا ويحجازها أو يزيلها . وإذا كان مؤمناً بالمبداى . تضاعفت قوته بالإيمان مرة ، وبالمبداى مرة أخرى . ولذا لا يرى نفسه ولا ماله شيئاً بجانب ما يؤمن به من مبداى . ومثل ، ولا يعز عليه إلا أن يرى مبادئه حقيقة واقعة . وتضحيتته بنفسه وماله فى سبيل مبادئه آية عندئذ على أن قوة إيمانه قد زادت وتضاعفت فاسترخص نفسه وماله فى سبيل مبادئه . وإذا استرخص الإنسان نفسه وماله فى سبيل إيمانه بالمبداى . فإنه سيفوز حتماً بوجوده وبحياته ، ولكن بوجود أكرم وبحياة أعز وأقوى .

تلك سنة الطبيعة كما ذكرنا لا تتخلف . وآية ذلك مرة أخرى ما كان بالأمس القريب فى حياتنا الحاضرة ، يوم أن اعتدى علينا المعتدون الآثمون بما لهم من قوة على الأرض وفى السماء وفوق الماء تفوق مالنا من قوة مادية . وما اعتصمنا يومذاك فى مواجهة العدو إلا لأننا آمنّا بحقنا فى الحياة وآمنّا بسيادتنا على أرضنا ، وآمنّا بحريتنا واستقلالنا وتحررنا ، من كل نفوذ أجنبي . وهو إيمان بمبداى . ومثل - وتمثل هذا الإيمان فى نفوسنا ، وأخذعائنا قلوبنا وجوارحنا على السواء ، فأصبحنا قلوباً واحداً ويداً واحدة ، واتجهنا جميعاً اتجاهاً واحداً . وهنا تضاعفت قوتنا وزادت ونمت ، لأن مصدرها هو الإيمان ، والإيمان بمبداى . وبذلك رجعت كفتنا وكان لنا النصر أخيراً . وهو نصر الإيمان بالمبداى على العدو والقوة المادية التى للعدو ، نصر التضحية فى سبيل تلك المبادئ على التسليم والإذعان على نحو ما خيل العدو لنفسه ، استناداً إلى تفوقه فيما يملك من عدد وعتاد .

وإذا كان الإيمان بالمبداى كفيلاً بالنصر للمؤمنين بها أخيراً ، فإننا - لكن -

نفق أقوىاء ، وبالتالى أعزاء وأحراراً فى أنفسنا وعلى أرضنا — علينا أن ندرك تماماً أن المجتمع مبادئ. ومثلاً عليا ، وإنه يجب علينا أن نؤمن بها إيماناً وثيقاً ، آية هذا الإيمان أن نهى أنفسنا للتضحية فى سبيلها والبذل عما نملك من طاقات مادية وأدبية — علينا أن نقاكد أنه مهما هتيت لنأمن وسؤال القوة المادية فلا نستطيع بها وحدها أن نواجه أحداث الحياة ، وخاصة أحداث عدو يربص بنا ويرأى أمر علينا . والعلم موجود دائماً ، والتأمر ظاهرة من ظواهر البشرية تختفى حيناً وتظهر أحياناً .

ولكن ليس معنى ذلك أننا نهمل إعدادة وتنقاضى عن الأخذ بأسباب القوة المادية . وإنما اجتماع الأمرين معاً : القوة المادية والقوة المعنوية بالإيمان بالمبادئ . والمثل هو السبيل القويم لحياة إنسانية كريمة ، ولسيادة الإنسان على الأرض التى يعيش فوقها : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .